

الموسيقى العربية

مجلة تعنى بالموسيقى
تصدر عن المجمع العربي للموسيقى
جامعة الدول العربية

العدد الرابع
كانون الاول ١٩٨٤

المحتويات

كانون الاول ١٩٨٤

تربية موسيقية:

الموسيقى واثرها في تكوين شخصية الفرد وتقدم المجتمع

الدكتور : نوري جعفر

تحتل الموسيقى – في تراث العرب الثقافي – مكانة مرموقة فقد كتب عنها ومارسها بالفعل فريق من المع رجال الفكر العربي من مختلف الاختصاصات : وبخاصة في مجال الفلسفة والطب . وتحدث الكثيرون منهم عن جوانبها التربوية والسايكولوجية وعن اهميتها في حياة الناس على اختلاف مشاربهم وفي جميع المناسبات التي تحفل بها الحياة الاجتماعية . كما تحدثوا ايضا عن ادواتها المتعددة واسهبوا في وصف العود . وقد لخص ذلك كله اخوان الصفا في القرن الرابع الهجري : القرن العاشر الميلادي – في الرسالة الخامسة (وهي اثنتان وخمسون رسالة[1]) التي عنوانها في الموسيقى (الجزء الاول ص ١٨٢ – ٢٤١ : رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء : دار صادر – بيروت : ١٩٥٧) . وهذه مقتطفات منها :

(واذ قد فرغنا من ذكر الصنائع العلمية الروحانية التي هي اجناس الصنائع . وبينّا ماهية كل واحدة منها وكمية انواعها وما الاغراض المطلوبة منها في رسالتين لنا فنريد ان نذكر الان في هذه الرسالة الملقبة بالموسيقى الصناعة المركبة من الجسمانية والروحانية التي هي صناعة التاليف في معرفة النسب . وليس غرضنا من هذه الرسالة تعلم انغام وصنعة الملاهي – وان كان لا بد من ذكرها – بل غرضنا هو معرفة النسب وكيفية التأليف اللذين بهما وبمعرفتهما يكون الحذق في الصنائع كلها .

اعلم يا اخي – ايدك الله وايانا بروح منه – بان كل صناعة تعمل باليدين فان الهيولى الموضوعة فيها انما هي اجسام طبيعية ومضمونها كلها اشكال جسمانية الا الصناعة الموسيقية فان الهيولى الموضوعة في كلها جواهر روحانية : وهي نفوس المستمعين وتأثيراتها فيها مظاهر كلها روحانية ايضا . وذلك ان الحان الموسيقى اصوات ونغمات . ولها في النفوس تأثيرات كتأثيرات صناعات الصناع في الهيوليات الموضوعة في صناعتهم . فمن تلك النغمات والاصوات ما يحرك النفوس نحو الاعمال الشاقة والصنائع المتعبة وينشطها ويقوي عزماتها على الافعال الصعبة المتعبة للابدان التي تبذل فيها مهج النفوس ونخائر الاموال : وهي الالحان المشجعة التي تستعمل في الحروب وعند القتال في الهيجاء ولا سيما اذا غني معها بأبيات موزونة في وصف الحروب ومديح

الشجعان .. ومن الالحان ايضا والنغمات ما يسكن سورة الغضب ويحل الاحقاد ويوقع الصلح ويكسب الالفة والمحبة .. ومن الالحان والنغمات ما ينقل النفوس من حال الى حال ويغير اخلاقها من ضد الى ضد ..

فقد تبين بما ذكرنا ان لصناعة الموسيقى تأثيرات في نفوس المستمعين مختلفة كاختلاف تأثيرات صناعات الصناع في الهيوليات الموضوعة في صناعتهم . فمن اجلها يستعملها كل الامم من بني آدم وكثير من الحيوانات ايضا . ومن الدليل على ان لها تأثيرات في النفوس استعمال الناس لها : تارة عند الفرح والسرور في الاعراس والولائم والدعوات وتارة عند الحزن والغم والمصائب في المآتم . وتارة في الاسواق والمنازل وفي الاسواق وفي الحضر وعند الراحة والتعب وفي مجالس الملوك ومنازل السوقة . ويستعملها الرجال والنساء والصبيان والمشايخ والعلماء والجهال والصناع والتجار وجميع طبقات الناس» .

تلك عبارات طريفة وعميقة تشير الى اهمية الموسيقى في حياة الانسان وتبين آثارها السايكولوجية في النفوس في حالاتها المختلفة في ضروب الحياة المتعددة وكون جميع الناس يحتاجون اليها ويمارسونها ايضا في مختلف المناسبات . ثم يستطرد اخوان الصفا في احاديثهم عن الموسيقى فيذكرون علاقتها الوثيقة بالغناء فيقولون : (ان الموسيقى هي الغناء والموسيقار هو المغني . والموسيقيات هي آلة الغناء . والغناء هو الحان مؤلفة . واللحن هو نغمات متواترة . والنغمات هي اصوات متزنة) . وبهذا فانهم يوصلون الصلة بين الموسيقى والغناء الى درجة ذوبان احدهما او انصهاره بالآخر : وهو رأي معقول ومقبول من الناحية السايكولوجية بالنظر لوشائج القربى بينهما .

ثم ينتقل اخوان الصفا في رسالتهم الممتعة عن الموسيقى الى التحدث عن الالات الموسيقية الشائعة في زمانهم ويطنبون في ذكر العود فيقولون : (**اعلم يا اخي ـ ايدك الله بروح منه ـ بان الحكماء قد صنعوا آلات وادوات كثيرة لنغمات الموسيقى والحان الغناء مقننة الاشكال كثيرة الانواع : مثل الطبول والدفوف والنيات والصنوج والمزامير والسرنايات والصفارات والسلباب . والشواشل والعيدان والطنابير والجنك والرباب والعازف والاراغن والار مونيقي وما شاكلها من الالات والادوات المصوتة . ولكن اتم آلة استخرجتها الحكماء واحسن ما صنعوها الآلة المسماة بالعود**) .

ثم يستطرد اخوان الصفا في وصف العود فيقولون (ونحتاج ان نذكر من كيفية صنعها واصلاحها واستعمالها وكمية نسب ما بين نغمات اوتارها وطولها وعرضها وغلظها ورقتها وفقراتها طرفا شبه المدخل والمقدمات ليكون تنبيها لنفوس الطالبين للعلوم الفلسفية والناظرين في الآداب الرياضية) .

ويختتمون رسالة الموسيقى الانيقة هذه بعبارات تتضمن الناحية التهذيبية للموسيقى في صقل النفوس ورفعها نحو معالي الامور والترفع عما يشين الانسان فيقولون مخاطبا جمهور المنصتين الى النغمات الموسيقية . «احذروا عند استماع الموسيقى ان تثور بكم شهوات النفس البهيمية نحو زينة الطبيعة فتميل بكم عن سنن الهدى .. وعلى الموسيقار ان يحرك النفس نحو قواها الشريفة من الحلم والجود والشجاعة والعدل والكرم والرأفة ...

ان اصوات الموسيقار ونغماته ـ وان كانت بسيطة ليس لها حروف معجم ـ فأن النفوس اليها اشد ميلا ولها اسرع قبولا لمشاكلة ما بينهما) .

لقد مر بنا القول ان اخوان الصفا اطنبوا في وصف العود وفي منزلته في عالم الموسيقى . ورأيهم هذا مستمد من مكانة العود في المجتمع العربي في الماضي (والحاضر ايضا وفي المستقبل) . وقد عبر عن مكانة العود الرقيقة هذه واطنب في وصفها الشعراء . قال كشاجم بصف عوداً ومغنية :

واجوف معشوق الانين مخفف
تحرك من اطرابنا حركاتَه

له السن ركبن من غير جنسه
تعاد اذا أوبت به نقرأته

تعانقه بين الندامى غريرة
كعاب اليها موته وحياته

اذا ما أنبضته انبضت منه راقدا
وان هي لم تنبضه طال سباته

وقال كشاجم ايضا في المعنى نفسه :

ومسمعة تحنو على مترنم
له رجل عال وليس له سحر

اذا تأملت الحشا منه خلته
تضمن شبعا وهو منحرف صفر
اذا طوقته بالانامل والتقى
على جسمه من جسمها الصدر والنحر
بكى طرباً فاستضحك اللهو نحوه
وقضت عرى الالباب واستلب الصبر

احتلت الموسيقى بالذات (والفن بصورة عامة) منزلة خاصة في حياة فئة كبيرة من ابرز رجال الفكر في المجتمع العربي وفي المجتمع الغربي على حد سواء : من ناحية اهميتها وممارستها ايضا . مع ارتباطها بالغناء وبالشعر . وفي مقدمة هؤلاء في تراثنا الثقافي : الكندي (١٨٥ ـ ٢٥٠ هجرية : ٨٠١ ـ ٨٦٦م) . والفارابي (٢٥٧ ـ ٣٣٩ هجرية : ٨٧٠ ـ ٩٥٠م) .
وابن سينا (٣٧٠ ـ ٤٢٨ هجرية : ٩٨٠ ـ ١٠٣٧م) .
والطبيب العربي المشهور الحارث بن كلدة الثقفي الذي اشتهر بالعزف على العود في بداية عهد الخلفاء الراشدين .
اما في التراث الغربي فقد اورد دارون مثلا (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) ملاحظات طريفة عندما سجل تاريخ حياته بعد تجاوزه عامه السبعين ذكر فيها ان تلاوة الشعر منذ طفولته حتى بلوغه عامه الثلاثين كانت تغمره بمتعة نفسية عظيمة . وانه ايضا كان يستمتع بمشاهدة اللوحات الفنية التي خطها كبار الرسامين وبالاصغاء الى العزف الموسيقي : ومن طريف ما يروى عن آينشتين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥ (قوله : انه تعلم من الاديب الروسي الفنان دوستوييفسكي (١٨٢١ ـ ١٨٨١) في حقل الفيزياء والرياضيات اكثر مما تعلمه من عالم الفيزياء الفذ نيوتن (١٦٤٥ ـ ١٥٢٧) ومن عالم الرياضيات الالماني اللامع كوس (١٧٧٤ ـ ١٨٥٥) ولقد قال ايضا في مناسبات اخرى : ان التفكير العلمي ينطوي دائما على عنصر شعري . هذا بالاضافة الى ان آينشتين كان يعزف على الكمان وله ولع خاص في الاصغاء الى موسيقي باخ (١٦٨٥ ـ ١٧٥٠) وموزارت (١٧٥٦ ـ ١٧٩٤) وهايدن (١٧٣٢ ـ ١٨٠٩) . وذكر ايضا ان موسيقي باخ تذكره دائما

بالمنطق الرياضي . وعالم فيزيائي فذ معـــاصر آخـــر هـــو نيلز بوهـــر (١٨٨٥ ـ ١٩٦٣) اشار في مناسبات عديدة الى العلاقة بين الموسيقى وبين التفكير العلمي المجرد او النظري واعتبر الموسيقى ترفع الفكر العلمي النظري الى مستوى اعلى من الاناقة والانسجام كما انها تجعل الفكر العلمي يسبح في اجواء خيالية رحيبة لا تعرف السدود او القيود .

معنى ذلك ـ بعبارة ادق ـ وجود رابطة عضوية بين الموســيقى والرياضــيات رغم الفرق الاساسي الموجود بينهما الناجم عن كون الرياضــيات [والتي هـــي في الاصل علم المجردات] تستند استناداً كلياً الى الفكر المجرد البعيد عن المشاعر : في حين ان العكس هو الذي يحصل في حالة الموسيقى . وقد ثبت ـ بصدد الرابطة العضوية بينهما ـ ان الرياضيات بطبيعتها التجريدية تســتلزم ايضــاً عوامــل حسية بصرية . وهذا يصدق ايضا على الموسيقى . كما ثبت ايضا ان الموســيقى تساعد على تحسين القدرات العقلية الرياضية وعلى زيادة كميتها . يضـــاف الى ذلك ـ ولا يقـــل اهمية عنه ـ ان الرياضــيات هـــي في جـــوهرها عملية ابداع او ابتكار . وكذا الحال في الموسيقى .

ومن الطريف ان نشير هنا الى ان افلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ قم) وضع الموسيقى في كتابه الجمهورية موضعا ممتازاً بالنسبة للفنون الرفيعة الأخرى واعتبر المعلم الناجح ان يكون موسيقاراً . فكتب على ما يقول الرواد ما نصه (انني لا اسمح لاي شخص ان يصبح معلماً ما لم يكن موسيقاراً في الوقت نفسه) وفي هـــذا القول يضع افلاطون الموسيقى وحـــدهـــا ـ دون ســـائر الفنون الرفيعـــة في قمـــة الموضوعات التربوية الحقة بنظره لكونها برأيه تصقل المشاعر وتنمي العقـــل في آن واحد : والمعلم الفنان (الموســيقار) بتعبير افـــلاطون يختلف ، نوعيا جـــذرياً حاسما عن المعلم الاعتيادي . وهذا دليل على منزلة الموســيقى في نظـــام التعليم القديم في مجتمع الرق اثناء العهد اليوناني القديم . ومع ان مـــركز الموســيقى في نظام التعليم اثناء العصور الاوربية الوسطى قـــد تضـــعضع نســبياً ابان عهـــد الاقطاع الا ان الموسيقى احتفظت بمكانتها في المجتمع نفسه كما اتضـــح ذلك في المدن الايطالية اثناء عصر النهضة الاوربية وبخاصة لدى الاسر المترفة النبيلة او

العريقة . واستمرت الحال على هذا المنوال حتى القرن التاسع عشر . واقتصر الأمر في الأعم الاغلب على الموسيقى . وهو الذي جعل اقتناء آلة بيانو دليلا في حد ذاته على علو منزلة صاحبها . وقد نجم عن ذلك ورافقه بحث مستمر عن معلمي البيانو مما ادى في آخر المطاف الى نشوء فئة من معلمي البيانو المحترفين .

— ٤ —

اما في الوقت الحاضر فقد اخذت التربية الموسيقية بالذات تستعيد مكانتها القديمة او تساهم جنبا الى جنب مع سائر الفنون الرفيعة والعلوم الطبيعية والاجتماعية تربية متكاملة ومتناسقة . ونظرا لأهمية التربية الموسيقية في المجتمع المتقدم الحديث بصورة خاصة وتحقيقا لتبادل المعلومات والخبرات في هذا المجال فقد جرت محاولات عديدة (قبل اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية) لايجاد روابط بين المعنيين بقضايا التربية الموسيقية في جميع ارجاء العالم وبخاصة في الأقطار المتقدمة فنشأت نتيجة تلك المحاولات «الجمعية الدولية للتربية الموسيقية» عام ١٩٣٤ واتخذت من مدينة براغ مقرا لها . وبدأت نشاطها بتحمس في المؤتمرات الدولية التي اخذت تعقدها بعد تشكيلها لفترة وجيزة فعقدت مؤتمرها الدولي الأول عام ١٩٣٦ والثاني في باريس والثالث في جنيف ١٩٣٨ (الذي خصص لبحث موضوع التربية الموسيقية للاطفال المعوقين . كما ان الجمعية عقدت عدة اجتماعات جانبية ولقاءات ضمت بعض المعنيين بالتربية الموسيقية (اشهرها لقاء باريس ١٩٣٧ولقاء زيورخ وبيرن وبادن ١٩٣٨) .

وقد حال اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) دون استمرار نشاط الجمعية الدولية للتربية الموسيقية وادى ايضا الى انقطاع الروابط الفكرية والاجتماعية بين اعضائها طول فترة الحرب . ولم يستأنف النشاط الثقافي المتعلق بالتربية الموسيقية على النطاق الدولي الا في عام ١٩٤٩ ـ اي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بزهاء اربع سنوات ـ حين نشأ (مجلس الموسيقى الدولي) الذي اعتبر غرضه الرئيس او هدفه الاسمى (دراسة دور الموسيقى في بناء شخصية الفرد ودراسة منزلة الموسيقى في نظام تربية الاطفال) .

اتضح نشاط مجلس الموسيقى الدولي في المؤتمرات الدولية للتربية الموسيقية التي بدأ انعقادها بالتعاون مع منظمة اليونسكو ومع الجمعية الدولية للتربية الموسيقية : فعقد المؤتمر الاول للتربية الموسيقية في مدينة بروكسل عام ١٩٥٣ : (لدراسة جوانب موضوع **التربية الموسيقية وللكشف عن دور الموسيقى في تربية الشبان والبالغين ولدراسة القضايا المتعلقة بالتربية الموسيقية للهواة وللتوصل ايضاً الى ابتداع افضل الاساليب الواجب اتباعها في التربية الموسيقية المدرسية وفي تدريب معلمي الموسيقى)** .

ومن الطريف ان نشير هنا الى ان المؤتمر الدولي هذا قرر اعادة تشكيل (الجمعية الدولية للتربية الموسيقية) التي مر بنا ذكرها لوضعها على اسس جديدة ولتحديد غرضها العام بدقة الذي هو (تشجيع تعليم الموسيقى في جميع ارجاء المعمورة والعمل على جعل التربية الموسيقية جزءاً لا يتجزأ من نظام التعليم العام في كل قطر ونشر الوعي الموسيقي في صفوف المواطنين جميعا بصرف النظر عن المهنة او العمر . وذلك تمشيا مع الاعلان العام لحقوق الانسان الذي اقرته هيئة الامم المتحدة في ١٩٤٨/١٢/١٠ ليستطيع كل فرد من افراد المجتمع ان يساهم مساهمة ايجابية في الحياة الثقافية السائدة في المجتمع الذي يترعرع فيه ويرفعه ايضا الى مستوى أعلى وان يتمتع كذلك بالفنون الرفيعة لا سيما الموسيقى باعتبارها هواية مترفة انيقة لجميع المواطنين ومهنة ايضاً لدى بعضهم) .

اخذت (الجمعية الدولية للتربية الموسيقية) على عاتقها بالتعاون مع (المجلس الدولي للموسيقى) ـ تحت اشراف اليونسكو انجاز المهمة التربوية الموسيقية المشار اليها على افضل وجه . وسعت سعيا حثيثا وبجهود مضنية ومتواصلة الى نشر التربية الموسيقية بين الاطفال والشبان ـ بصورة خاصة ـ في مختلف الاقطار وكذلك بث الوعي الموسيقي في اوساط المربين والمعنيين بتربية الاطفال على اساس ان التربية الموسيقية اداة فعلية بالغة الاهمية في تكوين شخصية الفرد من الناحية الاخلاقية والعقلية والعاطفية وبخاصة اذا اتبعت في تعليمها الاساليب الحديثة الفعالة المستمدة من احدث نظريات علم النفس ومن الممارسات الناجحة التي تنسجم ايضا او تتلاءم مع الخصائص المميزة لكل امة او مجتمع

من ناحية الاستعانة بالتربية الموسيقية ذاتها لنشر التفاهم والتعاون بين الشعوب ولتقوية اواصر المودة والثقة المتبادلة بينها لخدمة المصلحة العليا للمجتمع البشري وللمساهمة الايجابية الفعالة في تقدم الحضارة المادية والثقافية الروحية ـ على حد سواء .

ذكرنا ان (الجمعية او الرابطة الدولية للتربية الموسيقية) قد اعيد تشكيلها في مؤتمر بروكسل الدولي الاول للتربية الموسيقية في عام ١٩٥٣ . ونود الآن ان نشير الى ان الرابطة الدولية للتربية الموسيقية تبلور تشكيلها على النحو الآتي : فاصبحت مؤلفة من رئيس منتخب ومن ثلاثة نواب للرئيس ومن سكرتير عام وامين للصندوق ومجلس ادارة . واصبحت لها مهمات اساسية لابد من السعي لتحقيقها على افضل وجه وهي :

اولا : تنظيم مؤتمرات دولية دورية بالتعاون مع المجلس الدولي للموسيقى وباشراف منظمة اليونسكو وان تقوم الجمعية ايضا بمبادرات خاصة بين حين وآخر لعقد ندوات متخصصة لبحث قضايا معينة وآنية تتعلق بالتربية الموسيقية كلما استجدت امور معينة تستلزم ذلك .

ثانيا : نشر الآراء والمقترحات والتوصيات المرتبطة بالتربية الموسيقية ومواصلة العمل او السعي لتسهيل الاتصالات او الروابط الدولية بين اصحاب العلاقة بالمراسلات وتبادل المعلومات والخبرات في موضوع الموسيقى في مجال التربية بصورة خاصة .. اما اداة ذلك الاتصال فهي في الاساس بالاضافة بالطبع الى قنوات كثيرة اخرى ـ المجلة التي تصدرها الجمعية : المسماة : التربية الموسيقية الدولية .

ثالثا : تشكيل لجان وهيئات متخصصة تأخذ على عاتقها معالجة قضايا علمية سايكولوجية وتربوية عامة ترتبط ارتباطا وثيقا ومباشرا بالتربية الموسيقية وبخاصة من خبراء في علم النفس والتربية الحديثة ذوي المام وولع خاص واهتمام بالتربية الموسيقية وبتاريخ الموسيقى بوجه عام .

لقد مر بنا القول بأن الرابطة او الجمعية الدولية للتربية الموسيقية ـ بالتعاون مع المجلس الدولي للموسيقى وتحت اشراف او توجيه منظمة اليونسكو ـ اخذت على عاتقها عقد مؤتمرات دولية لتحقيق اغراضها بتبادل الرأي والخبرة

وبالاستعانة بالخبراء لا سيما في مجال الموسيقى وفي حقل علم النفس والتربية . وقد عقدت مؤتمرها الدولي الاول ـ كما ذكرنا ـ في مدينة بروكسل في عام ١٩٥٣ . ونود الآن ان نسترسل وان نشير ـ بأقصى حد من الايجاز والتركيز ـ الى المؤتمرات الاخرى التي أعقبت مؤتمر بروكسل والى الاغراض التي أخذت تلك المؤتمرات على عاتقها تحقيقها : وسوف نقتصر ـ تفاديا للاستطراد وتوخيا للايجاز ـ على مجرد الاشارة الى المؤتمرات الدولية التي عقدت في الفترة الواقعة ما بين ١٩٥٥ أو ١٩٧٠ بالنظر لاهميتها في هذا المجال : ١٩٥٥ ، مؤتمر لانداو في جمهورية المانيا الاتحادية وفي مدينة زيورخ السويسرية . وقد عالج موضوع (دور الموسيقى ومكانتها في تربية الشبان والبالغين) .

٢ : ١٩٥٨ : مؤتمر كوبنهاكن في الدنمارك الذي واصل البحث في موضوع «دور الموسيقى ومنزلتها في تربية الشباب والبالغين» : اي اتمام المهمة التي اخذ على عاتقه انجازها مؤتمر عام ١٩٥٥ الذي مر بنا ذكره بالنظر لضخامتها وتعدد وجهات النظر فيها اي ان هذا المؤتمر كان امتدادا للمؤتمر السابق .

٣ : ١٩٦١ : مؤتمر فينا في النمسة الذي اخذ المشاركون فيه على عاتقهم مهمة القيام بدراسات مقارنة في التربية الموسيقية في الاقطار المشاركة في المؤتمر وفي اقطار كثيرة اخرى تتسنى لهم دراسة قضية التربية الموسيقية فيها وذلك للتوصل الى مبادىء عامة نظرية وتطبيقية بالامكان تعميمها والانتفاع بها .

٤ : ١٩٦٣ : مؤتمر طوكيو الذي بحث المشاركون فيه قضية (الموسيقى في الشرق والغرب) ومسألة (التربية الموسيقية) وذلك لمعرفة اوجه الشبه والاختلاف بين نمطي الموسيقى الشرقية والغربية والخصائص المميزة : لكل منهما مع ملاحظة اثر ذلك في التربية الموسيقية لغرض التوصل الى مبادىء نظرية وتطبيقية عامة .

٥ : ١٩٦٤ مؤتمر بودابست في المجر الذي خصص لدراسة ومناقشة وتبادل الرأي في موضوع الموسيقى في القرن العشرين ومسألة التربية الموسيقية .

٦ : ١٩٦٦ : مؤتمر انترلوجين في الولايات المتحدة الذي تبودلت فيه الآراء في موضوع (دور التربية الموسيقية في نشر التفاهم بين الثقافات المختلفة القديمة والحديثة) ولهذا المؤتمر اهمية دولية خاصة في الدعوة الى نبذ التحيز او التعصب والنظرة الضيقة للتراث الموسيقي المحلي في كل قطر مع تشجيع تبادل المعلومات

المتعلقة بالتراث الموسيقي القديم للأمم المختلفة وكذلك استخدام الموسيقى كأداة ثقافية مهمة وفعالة لتخطي الحواجز الجغرافية والسياسية والعنصرية السائدة .

٧ : ١٩٦٨ : مؤتمر ديجون في فرنسة الذي تصدى المشاركون فيه لبحث (وسائل الاعلام الحديثة في التربية الموسيقية المعاصرة) .

٨ : ١٩٧٠ : مؤتمر موسكو في الاتحاد السوفيتي الذي خصص لبحث موضوع (دور التربية الموسيقية في حياة الاطفال والبالغين) : ومن الطريف والمهم ان نشير هنا الى ان العام الذي عقد فيه مؤتمر موسكو هذا كان هو أيضا العام الدولي للتربية الذي أقرته هيئة الامم المتحدة . ومؤتمر موسكو هذا اتصف بسعة المواد المطروحة للبحث فيه وبتعدد القضايا التي عالجها المشاركون فيه . وقد حضره (١٣٨٢) مندوبا يمثلون (٤٤) دولة كما حضره (٣٦٧٣) طفلا ويافعا من هواة الموسيقى يمثلون (٣٩) فرقة موسيقية . وقد حصلت فيه ايضا ممارسات لفعاليات موسيقية متعددة . والقيت فيه محاضرات عديدة تناولت جوانب سايكولوجية وتربوية متعددة .

وعقد المؤتمر جلسة عامة موسعة وجلسات جانبية كبيرة ساهم فيها فريق من كبار المعنيين بشؤون التربية الموسيقية وتوصلوا الى توصيات واقتراحات مفيدة نظرية وعلى الصعيد التطبيقي .

يتضح اذن ان المؤتمرات الدولية المشار اليها ـ والمؤتمرات الدولية اللاحقة التي اعرضنا عن ذكرها توخيا للايجاز ـ عالجت قضايا جوهرية في مجال التربية الموسيقية وفق احدث النظريات السايكولوجية والتربوية . وقد تهيأت للمساهمين فيها فرص مؤاتية لتبادل الآراء والمعلومات والخبرات وللاصغاء ايضا للاطفال والبالغين اثناء ممارساتهم نشاطهم الموسيقي الفعلي ..

كما ان الخبراء القوا في كل مرة مزيدا من الضوء العلمي السايكولوجي والتربوي على مسألة (التربية الموسيقية) مع شرح اهمية التربية الموسيقية (والموسيقى في حد ذاتها) في بناء شخصية الفرد ابتداء من مرحلة الطفولة الاولى في الاسرة والروضة والمدرسة الابتدائية .

وقد أدى ذلك كله الى تبديل النظرة القديمة للموسيقى وللتربية الموسيقية والى نبذ الآراء البالية في هذا الباب واصبحت التربية الموسـيقية في ضـوء مقـررات وتوصيات المؤتمرات الدولية المنوه عنها (واللاحقة ايضا الى يومنا هذا) ظاهرة اجتماعية واسعة المدى وعميقة الغور ومتعـددة الجـوانب مـن الناحيتين السايكولوجية والتربوية . كما اعتبرت ايضا التربية الموسيقية (والموسيقى في حد ذاتها) اداة فعالة في تربية المشاعر وصقل الحس وتنمية القـدرات العقلية . كمـا ادى ذلك ايضا الى اتساع مجـال نشـاط (الجمعية الدولية للتربية الموسـيقية) ونشاط (المجلس الدولي للموسيقى) وانضمام دول اخرى كثيرة جديدة لعضـوية كل منهما .

— ٥ —

ثبت علميا في الوقت الحاضر (في ضـوء الدراسـات السـايكولوجية النظـرية والميدانية وفي ضـوء الممـارسات الفعلية والمشـاهد اليومية المعتادة) ان للتربية الموسيقية (وللموسيقى نفسها بالذات) التي يمارسها الاطفال منذ سن مبكرة عن طريق الاصغاء والممارسات الفعلية (التي يشترك فيها النغـم الغنائي الشـجي بالايقاع الموسيقي الجذاب) اثرا عميقـا في تكوين شـخصية الفـرد . وذلك لأن الموسيقى في حد ذاتها تصقل المشاعر وتهذب الذوق وتنمي الخيال وتسـاعد على تكوين القدرة على الابداع او الابتكار وتغرس النظرة الفنية الجمـالية للطبيعـة الحية والجامدة . كما انها تعود الاطفال — منذ نعومة اظفارهم — على اتقان فـن التحدث والاصغاء وتركيز الانتباه وتقوية الذاكرة والتفكير . وتغـرس ايضـا في الناشئة حب الوطن والأمة والاعتزاز بالجوانب الايجابية مـن التراث الفـكري وتعودهم ايضا على التعاون او العمل الجماعي البناء في سبيل خـدمة المصـلحة العامة وتنمي فيهم الخلق الرفيع والوطنية الصـادقة والقـدرة على التعبير عن المشاعر المرهفة والمطامح النبيلة وتبعث الثقة بالنفس والتفاؤل والبهجة . وهـذا يعني — بعبارة اخرى — ان التربية الموسيقية والموسيقى في حـد ذاتهـا هـي في جوهرها ظاهرة ديمقراطية اصـيلة عندمـا ترتبط بالغناء او الانشـاد المهـذب المحتوي الوطني وبالايقاع الفني الجمالي الذي يستثير وينمي ويطور المشـاعر

الانسانية الرفيعة الجماعية عند الانشاد والعزف واثناء الاصغاء . كما انه يؤدي كذلك الى تمتين او تقوية الروابط الاجتماعية الايجابية ويجعل الفرد ينصـــهر في الجماعة مع محافظته بمقوماته الايجابية المميزة . كما انه يجعل كذلك الجمـاعة نفسها تظهر في سلوك الفرد ذاته وفي مشاعره باعتبارها جزء لا يتجزأ مـن كيانه الفكري ومقوماته الثقافية : تكوينه السايكولوجي بعبارة اخرى . وهذا كله يعمل بدوره على جعل الفرد يسعى بكل طاقاته المادية الثقافية لمساعدة الجماعة ورفـع كفاءتها والى جعل الجماعة (اي الفريق الموسـيقي الذي ينتمـي اليه) بدورهـا تسعى بكل طاقاتها الجسمية والفكرية والعاطفية لمساعدة كل فرد مـن افـرادها ورفع كفاءته الى الحد الأعلى . وهكذا بين الجماعات المختلفة ولخدمة المجتمـع الأكبر .

ـ ٦ ـ

يفترض كثير من المعنيين بشؤون الموسيقى وفي علم النفس ـ دون وجه حق او سند علمي ـ ان تعلم الموسيقى يستلزم قدرة موسيقية خاصة يتصف بهـا بعض الناس دون غيرهم . ان هذا الرأي ـ بنظرنا ـ ليس صحيحا على هذا الوجه من وجوه الاطلاق ولابد من تحديد مداه تحديدا علميا يصبح منسجما مع الممارسات الفعلية ومع احدث نظريات النفس المستندة الى علوم الدماغ المعاصرة .

لدينا ـ بعد التحليل الدقيق وفي المدى البعيد ـ في تعليم الموسيقى وتعلمها ثلاثة مستويات عامة (مع فروق فـردية كبيرة وكثيرة بين افـراد كل مسـتوى تتعـذر الاحاطة ولا تستدعي الضرورة في هذا البحث الموجز ان ندخـل في تفـاصيلها) : هذه المستويات الثلاثة : قسمان الاول والثاني كما سنرى . مشتركان لدى جميع الافراد الأسوياء في جميع المجتمعات . أما المسـتوى الثالث فهـو خـاص بفـئة ضئيلة من الاشخاص كما سنرى : مـن الموسـيقاريين الافـذاذ : بتهـوفن ، موزارت ...

المستوى الاول :

الحد الادنى المشترك الموجود لدى جميع الافراد الاسوياء (غير المتخلفين عقلياً بفعل خلل فسلجي يعتري الدماغ) .

ـ التلاميذ في حالة التعليم : في جميع مراحل الدراسة ـ: معنى هذا : ان بالامكان ان يتعلم كل تلميذ الموسيقى وان يمارسها عندما تصبح جزءا من مناهج الدراسة تماماً كما يفهم التاريخ او الجغرافية او القراءة والحساب وسائر الموضوعات المنصوص عليها في المناهج في جميع مراحل التعليم من الروضة حتى الجامعة : اي ان بمستطاع كل تلميذ ان يتذوق الموسيقى وان يصغي اليها وان يمارسها اذا هيئت له الظروف البيئية الملائمة في الاسرة والمدرسة منذ سن مبكرة . والعامل الفسلجي ـ الوراثي في ذلك . هو (في ضوء علوم الدماغ المعاصرة) المرونة الهائلة للدماغ وبخاصة في مرحلة الطفولة المبكرة وتماثل ادمغة جميع الناس الأسوياء من ناحية تركيبها الفسلجي . وحيث تكون ايضاً مشاعر الطفل واخيلته وقدراته الابتكارية في ارفع درجات صعودها . وحيث تكون ايضا قدرته على استجابة النشطة الواعية والفعالة لا تعرف السدود او القيود . وحيث يكون الطفل كذلك خالي البال من مشاغل الحياة وصعوبات العيش . وهذه هي الفترة الحرجة في حياة الطفل (السنوات السبع الاولى من حياته) . وقد ثبت . في ضوء علوم الدماغ المعاصرة ـ ان هذه المرونة الفسلجية الدماغية تتحجر او تتكلس عندما لا يستثمرها الطفل الى حدها الاقصى وعندما لا تتهيأ له الظروف البيئية الملائمة داخل الاسرة والمدرسة وخارجها . الأمر الذي يفوت عليه فرصة ترسيخ اسس التربية الموسيقية .

وعلى هذا الاساس فان الاشخاص الكبار او الراشدين الذين لا يكترثون بالموسيقى (والذين يعجزون عن ممارستها بالطبع) هم الذين فات اوان تعلمهم اياها على الوجه الاتم (لا الذين يفتقرون الى القدرة الموسيقية المزعومة الفطرية) . ويصدق الشيء نفسه ايضا على الاطفال الذين لا يبدون اهتماما ملحوظاً بالموسيقى . وهذه قضية مألوفة وشائعة تحصل ايضا في درس القراءة او الحساب وفي الموضوعات الدراسية والمنزلية الخاصة بهؤلاء الاطفال لتعديلها

مع العلم ان هناك حالات مستعصية في تعلم الموسيقى (وغير الموسيقى ايضا) مردها في الاصل نواقص فسلجية تتعلق بالسمع او البصر او بحركة الاصابع لابد من مراعاتها ايضا او العمل على ازالتها بالطرق الطبية المعاصرة .

المستوى الثاني

اما المستوى الثاني من مستويات تعليم الموسيقى وتعلمها فهو ارقى نسبياً من المستوى الاول الذي ذكرناه واضيق مجالا منه ولكنه يشترك معه في خصائصه المخية الفسلجية والسايكولوجية العامة المشتركة بين جميع الافراد الاسوياء التي مر بنا ذكرها في المستوى الاول . هذا المستوى الثاني هو مستوى تعلم الموسيقى لاغراض مهنية اختصاصية : تعليم الموسيقى او تدريسها (كتعليم التاريخ او الجغرافية مثلا) . وكما انه لا يشترط بمعلم التاريخ ان يكون مؤرخا (بالمعنى العلمي الدقيق) او بمعلم الجغرافية ان يكون جغرافيا (بالمعنى العلمي الدقيق) فكذا الحال في معلم الموسيقى (وان كان الامر في حالة الموسيقى يحتاج الى بذل جهد اكبر وممارسة اكثر) . وهذا يعني بعبارة اخرى ان للعوامل البيئية الاجتماعية الثقافية (الموسيقية) داخل المدرسة وخارجها الأثر الحاسم ولا علاقة لذلك الا عرضا بالوراثة البايولوجية التي سيأتي ذكرها في المستوى الثالث والأخير .

المستوى الثالث

مستوى الاصالة او الابتكار او الابداع الموسيقي : وهذا يستلزم بالطبع مزايا بايلوجية فطرية خاصة ينفرد بها بعض الناس دون سواهم . وقد ذهب اصحاب الاختصاص مذاهب شتى في تفسير طبيعتها . ويسرني كثيراً ان اشير في هذه المناسبة (من باب الاعتزاز لا التبجح) انني توصلت الى رأي علمي جديد في تفسير طبيعتها (مستمد من علوم الدماغ الحديثة) اكتفي هنا بمجرد الاشارة اليه[٣].

وعلى هذا الاساس ـ او المستوى الثالث ـ فـان الموسـيقار الفـذ مـوزارت ، بيتهوفن مثلا) هو ـ بعـد وبالتحليل الدقيق ـ حصـيلة او نتاج التفـاعل والاثر المتبادل بين امكانياته المخية الفسلجية الخاصة التي يتميز بها دون سائر الافراد الاسوياء في المسـتويين الاول والثاني وبين ظـروفه البيئية الثقـافية وبخـاصة الموسيقية . معنى هذا ـ بعبارة اخرى : ان الامكانيات الموسيقية المخية الخاصة (الفطرية ، البايولوجية) وحدها او في حد ذاتها غير كافية لتكوين الموسيقار الفذ او الاصيل دون بيئة موسيقية خـاصة تسـتثمرها الى حـدها الاقصى منذ سـن مبكرة . كما ان البيئة الموسيقية الخاصة في حد ذاتها او مـن نفسـها غير كافية لتكوين الموسيقار الفذ دون امكانيات مخية خاصة ينفـرد بهـا . اي ان كلا مـن الوراثة والبيئة وان كان شرطا ضروريا لنشوء الموسيقار الفذ الا انه لوحده او في حد ذاته لا يكونه . وهذا واضح جداً في حالة موزارت .

ـ ٧ ـ

وفي الختام ارى لزاما علي ان اشير الى قضيتين اخريين هـامتين ترتبطـان بالموسيقى وبالتربية الموسيقية هما :

اولا : استخدام الموسيقى علاجا سايكولوجيا للاطفـال المعـوقين بمـن فيهـم المتخلفون عقليا بخاصة التجربة الدائرة في الولايات المتحدة[٣] التي يستخدم فيها النشاط الموسيقي الملائم الذي يبعث الثقة بالنفس ويستثير النشـاط الجسـمي والعقلي والعـاطفي الايجـابي الى حـده الاقصى ويسـاعد على تركيز الانتباه والاستراحة .

ثانيا : الحاجة الماسة الملحـة ـ على الصـعيد العـربي وعلى الصـعيد الدولي ايضا ـ الى اجراء مزيد مـن التجـارب السـايكولوجية والدراسـات الميدانية والنظرية للالمام الدقيق بخصوصية التربية الموسيقية لدى صغار الاطفال للتوصل الى اجابات دقيقة على الاستفسارات التالية :

كيف يتفهم الطفل الصغير الموسيقى والغناء ؟ هل توجد اختلافـات نوعية بين تعلم الطفل الموسيقى وبين تعلم الكبار اياها ؟ وما هي ؟ كيف يصـغي الاطفـال

اصغاء ايجابيا وبشوق للعزف والانشاد ؟ هــل هناك خصــائص ســايكولوجية وفسيحة ينفرد بها الاطفال في هذا الباب ؟ ما هي ؟ ما دور الملاحـظة الواعية في تعلم الموسيقى عند الطفل ؟ ما هـــي افضــل الاســاليب التربوية لتدريب صــغار الاطفال على العزف والاداء الموسيقي ؟ مــا هــي الاســاليب الفعــالة في تكوين المهارات الموسيقية عند الاطفال ؟ كيف نستثير مشــاعر الطفــل الايجــابية ازاء الموسيقى ؟ ما هي العلاقة بين قدرة الطفل على التفكير الموسيقي وقــدراته على التفكير في المجالات الاخرى ؟ مــا أثر الغناء في تعلم الموســيقى ؟ مــا الظــروف البيئية الواجب توافرها لاغنية الطفل من ناحية المحتوى واسلوب التعبير ومــن الناحية السايكولوجية ؟ ما دور اغاني الاطفال بالاشتراك مع الموسيقى في تربية الحس الفني الجمالي المرهف وفي تنمية الشعور بالمواطنة والانتماء الى الوطــن والأمة ؟

هناك قضايا اخــرى بالغــة الاهمية تتعلق بالموســيقى وبالتربية الموســيقية وبمواصفات معلم الموسيقى في العراق نرجو ان يمتد بنا العمــر للتصــدي لهــا ونشرها في المستقبل غير البعيد .

اهم مصادر البحث :

١ : الدكتور نوري جعفر : الاصالة في العلم والفن . وزارة الاعلام ـ ١٩٧٨ .
٢ : الدكتور نوري جعفر : بين الموسيقى والرياضيات ١٩٧٧ .
٣ ـ الدكتور نوري جعفر : الموســيقى وعلاقــاتها بالفنون الرفيعــة الاخــرى ـ ١٩٧٦ .

الهوامش :

(١) وهي مقسومة الى اربعة اقسام : فمنها رياضية تعليمية وهي اربع عشرة رسالة : الخامسة منها في الموسيقى . ومنها جسمانية طبيعية : وهي سبع عشرة رسالة . ومنها نفسانية عقلية : وهي عشر رسائل . ومنها الرسائل الناموسية الالهية والشرعية الدينية : وهي احدى عشرة رسالة .

(٢) بحثته في كتابي المنشور باللغة الانكليزية عام ١٩٧٦ ترجمة وعنوانه (الابداع وآليات الدماغ) لعل الظروف تساعد على كتابة مقال آخر اوضحه فيه .
وقد كان الرأي موضع تقدير علماء النفس البارزين في انكلترة والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بعد ان القيت ملخصه في المؤتمر الدولي لرعاية الموهوبين في لندن ١٩٧٦ ونلت عضوية جمعية علم النفس البريطانية وعضوية جمعية رعاية الموهوبين البريطانيين وعضوية المجلس الدولي لرعاية الموهوبين واصبحت عضواً مراسلاً في اكاديمية العلوم التربوية السوفيتية .

(٣) في المدرسة المسماة Mansfield Training School في مدينة Conneticut التابعة لـ State Department of Mental Health .
وهي تجربة طريفة اعرضنا عن الدخول في تفاصيلها لضيق الوقت وتفاديا للاستطراد .

